تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مع الدكتور طه حسين فى الفتنة الكبرى :

أخى الأستاذ

أملى الدكتور طه حسين بك فى كتابه « الفتنة الكبرى » الجزء الأول الآراء الثلاثة التالية :

١ — (وسيرى الذين يقرءون هذا الحديث أن الأمر كان أجل من عثمان وعلى وممن شايعهم وقام من دونهم . وأن غير عثمان لو لى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن) ص ٥ .

٢ — (هذه المشكلات الكثيرة التى ثارت من نفسها أو أثيرت أيام عثمان — لا لأن عثمان كان هو الخليفة — بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات من تلقاء نفسه وليثير الناس بعضها الآخر) ص ٩ .

٣ — (ولكن لو سار عثمان سيرة عمر ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس لما كانت الفتنة . ولما احتجنا إلى إملاء هذا الكتاب) ص ١٥٦ .

وإنى لأرى من ظاهر هذه الآراء تضاربها الواضح عند ما يحاول الدكتور تركيز رأيه فى أسباب الفتنة ومشكلاتها . فأرجو من الأستاذ المعداوى أن ييسر لنا الأمر ويوضح ما أراده الدكتور ويدلنا على الحقيقة التاريخية فى هذا الحدث المهم فى الحياة الإسلامية — ودمتم عوناً لمحبى المعرفة وطالبى الثقافة الصحيحة .

حسين حسن
معلم المدرسة القريبة
العراق — الناصرية

أشكر للأستاذ الفاضل حسن ظنه ، وأجيبه بأن هذا التناقض الذى يبدو له من ظاهر هذه الآراء مرجعه إلى أنها تقف وحدها فى رسالته الكريمة ، دون أن ترتبط بما حولها من شروح وملاحظات تتناول أسباب الفتنة ودواعيها ... ولو ربط الأستاذ بينها وبين ما سبقها وجاء بعدها من تحليل لمقدمات الفتنة ونتائجها لانتفى التناقض الذى يبدوله من ظاهر الألفاظ فيما كتب الدكتور طه حسين ؛ هذه الألفاظ التى تحتفظ بدلالتها المعنوية إذا ما طبقت على ما جاء بكتاب « الفتنة الكبرى » من تفسير لمجرى الحوادث ووقائع التاريخ .

يشير الدكتور طه فى الرأى الأول إلى أن غير عثمان لو ولى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن ، ثم يشير فى الرأى الثالث إلى أن عثمان لو سار سيرة عمر ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس لما وقعت الفتنة ... وقد يبدو هنا شىء من التناقض بين الرأيين ؛ لأن كلمة (غير عثمان) فى الرأى الأول قد تنصرف إلى غيره من صحابة الرسول وفيهم عمر بن الخطاب ، ولأن الدكتور قد قطع فى الرأى الثالث بأن عثمان لو سلك مسلك عمر فى معالجة الأمور لما وقعت الفتنة على هذا الوجه الذى وقعت عليه . الواقع أنه لا تناقض هناك ولا شذوذ ؛ لأن الدكتور يقصد من وراء (غير عثمان) أولئك الذين رشحوا للخلافة بعد مقتل عمر وكان من الممكن أن يليها أحدهم لو لم يقع الاختيار على عثمان ... فلو وليها على بن أبى طالب أو عبد الرحمن بن عوف أو سعد بن أبى وقاص أو طلحة بن عبيد الله أو الزبير بن العوام لتعرض كل واحد منهم لمثل ما تعرض له عثمان من ضروب السخط وصنوف الكيد وفنون الوقيعة أكل ما حدث هو أن عثمان رضى الله عنه قد عجل بوقوع الفتنة بضعفه وتساهله وقلة خبرته بشئون السياسة وأصول الحكم وطبائع النفوس ؛ ولو قدر لغيره من هؤلاء الذين أتينا على ذكرهم أن يأخذ الأمور بشىء من الحزم والعنف لأبطأت الفتنة فى سيرها بعض الإبطاء ولتأخرت النهاية عن موعدها بعض التأخير ، ولكن هذا كله لم يكن ليحول بينهم جميعاً وبين هذا المآل الذى كان بالنسبة إلى عثمان خاتمة المطاف .

هذا التفسير المقبول يمكن أن نعالج به الشق الأول من الرأى الثانى حين يقول الدكتور طه حسين بأن هذه المشكلات التى ثارت من نفسها أو أثيرت أيام عثمان — لا لأن عثمان كان هو الخليفة — بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات

من تلقاء نفسه وليثير الناس بعضها الآخر ... أتول الشق الأول من هذا الرأي لأننا لا نستطيع أن نبرئ عثمان من هذه المشكلات التي أثيرت وكان لطبيعته النفسية والخلقية في إثارتها أكبر أثر وأوفى نصيب . أما تلك المشكلات الأخرى التي ثارت من تلقاء نفسها فأوافق الدكتور طه على أنها لم تثر لأن عثمان هو الخليفة ، بل لأن الوقت كان هو السبب الأول والدافع الأصيل إلى بعثها وإثارتها بعد أن كتمت أنفاسها يد عمر ، وأخمد صوتها حزم عمر وحد من جموحها سوط عمر ... يوم أن كان يدوي فوق الرءوس ويلهب الأجساد !.

بعض المشكلات أثاره الوقت ولم يكن لعثمان يد فيه وبعضها الآخر أثاره عثمان « الخليفة » بضعفه وتسامحه واستسلامه لقوى قرباه ... أقول هذا لأن هناك كتاباً عن « عثمان بن عفان » يطمس حقائق التاريخ حين ينظر صاحبه إلى الفتنة ودواعيها من وراء هذا المنظار الديني الساذج الذي يظهر له عثمان فوق مستوى الشبهات والتبعات ! ما هكذا تعالج القضايا التاريخية بوضعها فوق مشرحة العواطف الدينية ؛ إننا لا نستطيع أن نضع على أعيننا هذا المنظار إلا إذا استطعنا أن نلغي العقل والمنطق حين نتحدث عن هذه الفتنة الكبرى دون أن نقدم النتائج مستندة إلى المقدمات ... موقف عثمان من مقتل الهرمزان ، تدليله لقرابته ، إنصافه المنتمين إليه على حساب الناس ، عزله ابن أبي وقاص عن الكوفة ليحل محله الوليد بن عقبة ، إقصاؤه أبا موسى الأشعري عن البصرة ليضع في مكانه عبد الله بن عامر ، خلعه عمرو بن العاص عن مصر ليخلفه فيها عبد الله بن أبي سرح ، إيثاره الحكم بن العاص طريد الرسول ، إغداقه المال على مروان بن الحكم مفيه المقرب ، خضوعه لتوجيهات معاوية في نفي أبي ذر ، اعتداؤه أو اعتداء رسوله على عمار بن ياسر ... كل هذه الأمور وأشباهها قد فرقت الشمل وعصفت بالصفوف ، لأن عثمان كان هو الخليفة ، ولئن كان السخط قد ولد في النفوس هذا الانفجار ، فلأن عثمان قد شارك في الأمر بضعف رأيه وقصور نظره وسقوط هيبته !

أما المشكلة الكبرى التي أثارها الوقت ولم يكن لعثمان فيها ذنب ولا جريرة ، فهي اتساع رقعة الفتوح ، وتدفق الأموال ، وانطلاق الأرستقراطية القرشية من عقالها انطلاق الأسود السجينة قد تخلت من زجرها قبضة السجان . ولم تكن القبضة الجبارة غير قبضة الجبار العادل عمر بن الخطاب لقد كان عمر يقف أبداً في طريق هذه الارستقراطية التي لا يصدها جشع ولا يحدها طموح ، لأنه كان أخبر الناس بالطبيعة القرشية إذا ما خلي بينها وبين ما تطمح إليه من سؤدد وما تطمع فيه من سلطان ... الدرة في يمينه تخشع لرؤيتها رءوس السادة من قريش والكلمة تحت لسانه تخضع لسطوتها نفوس السادة من قريش : « ألا إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » !

ولكن عمر يموت وتتنفس قريش بعد أن لقيت العواطف المكبوتة ما لقيت من قسوة الكبت ومرارة الحرمان ، وما كان لرجل غير عمر أن يقف في وجه هذه القوة المتحفزة للتوثب والانطلاق في غير حكمة ولا روية ولا اتزان ... لا هذا الخليفة المستضعف ولا هؤلاء الذين قاموا من بعده ليخلفوه ، لأن الأرض لم تظفر بغير عمر واحد لا شبيه له في العدل ولا النظير !

في رحاب الوقت على التحقيق ثارت من تلقاء نفسها هذه المشكلة الرئيسية وما تفرع عنها من مشكلات ، وفي رحاب عثمان على التحقيق أثار الناس وأثار هو ما جد بعد ذلك من أزمات !

رقاع مضللة عن السير ريالزم :

يذكر القراء أنني تناولت مذهب السير ريالزم بالنقد في عددين سابقين « من الرسالة » ، حيث تحدثت عنه في مجال الأدب والفن عند عميديه في فرنسا : بريتون وبيكاسو ... وذكرت أيضاً أنني وميت هذا المذهب بأنه شعوذة فنية لا أكثر ولا أقل ، وبأنه « لخبطة » ولا شيء غير « اللخبطة » ! قلت هذا فتصدى للرد علي في جريدة « البصير » التي تصدر في الإسكندرية أديب لا داعي لذكر اسمه لأن أحداً لا يعرفه ... ولقد هاجمني الأديب الإسكندري في بداية كلمته حتى خيل إلي أنه بعث بصلة القرابة إلى مسيو أندريه بريتون أو أنه على الأقل أحد تلاميذه النابغين !

قال الأديب النابغ بعد تهجمه النابغ : « وبذلك شاء الأستاذ المناوي أن يقضي بجرة قلم على مدرسة فنية ذات شهرة

ذائعة ترتكز إلى مبادىء يدين بها فنانون هم الآن في طليعة حركة التجديد ، يكفينا أن نذكر اسم زعيمهم (بيكاسو) للتدليل على أهمية ثورتهم على التقاليد القديمة . وبيكاسو فنان معاصر ، مبدع مذهب السير ريالزم ، ولنا إلى تاريخ حياته رجعة . إنما حديثنا اليوم حول موضوع السير ريالزم في حوار مع (نيكولا كالاس) وهو شاعر يوناني يعيش الآن في نيويورك ، وقد طبع له في باريس منذ عشر سنوات كتاب (النقد الفلسفي) من أجل ما يتضمنه ما جاء في موضوعنا .

— ما هي أغراض السير ريالزم ؟

— يرى السير ريالزم إلى التقليل — إن لم يكن التخلص نهائياً — من التناقضات المفتوحة القائمة بين الحلم والحياة المستيقظة ، أو بين الخيال والواقع ، أو بين الشعور واللاشعور . ويرمي أيضاً إلى الخروج بالشعر من (غرفات) الشعراء المشهورين إلى عالم واسع الجنبات ، يصبح فيه هذا الشعر ملكاً مشاعاً للجميع ! .

— ولكن ألم يكن الشعر أو التصوير ملكاً مشاعاً للجماعات !

— لم يكن الشعر أو التصوير ملكاً للجماهير على النحو الذي يقصده السير ريالزم . فيما مضى كان الشعر والتصوير مجرد تضليل وخداع للفرد . أما الآن فالسير ريالزم يفهمهما على أنهما تعبير عن أعمق الرغبات التي تختلج في أعماق الفرد .

— ما هي أهم قواعد السير ريالزم ؟

— الشيء الذي يجب أن يكون نصب أعيننا دائماً هو الحقيقة والحقيقة لا ضير عليها مع التخفي وعدم التصريح ! بل إننا بإتباعنا هذه السبيل إنما نساعد على التحلل من القيود التشكلية وهذا يعتبر من أظهر أهدافنا ! .

إلى هنا ونكتفي بهذا القدر من كلمات هذا الشاعر اليوناني المحرف — وأي تحريف أروع من قوله بأن الحقيقة لا ضير عليها من التخفي وعدم الوضوح ؟ لست أدري كيف تختفي الحقيقة عن أعيننا وأذهاننا ثم يتهيأ لنا القول بأننا قد عثرنا على الحقيقة ، ولست أدري كيف نعيش في ظلام الحيرة من الفهم لأهداف المذهب السريالي في لوحة فنية أو قطعة شعرية ثم يجيز لنا القول بأننا نعمل في رحاب النور ! أليس من المضحك حقاً أن يذهب السرياليون إلى أن الشعر والتصوير كانا مجرد تضليل وخداع للفرد ، وأن السير ريالزم هو وحده الذي ينهض بهما إلى مستوى رفيع من التعبير عن أعمق الرغبات ؟ ! — تصور أن الغموض ينهض بالوضوح ، وأن المجهول ينهض بالمعلوم ، وأن الشعوذة تنهض بالعقل ، وأن الخيال السقيم ينهض بالمعنى الجميل ! هل تستطيع أن تتصور ؟ لا أظن — اللهم إلا إذا فقدنا نعمة الذوق والشعور ! !

مقوم المرأة المصرية بين الأنصار والخصوم :

تدور منذ أيام على صفحات الصحف اليومية معركة حول مطالبة المرأة المصرية بحقوقها السياسية ، وفي هذا الموضوع قرأت في « الأهرام » كلمة « موزونة » للأستاذ محمد زكي عبد القادر يقول فيها : « ... وذكرت أنه منذ سنوات دخلت الفتاة المصرية المحكمة وعليها ثوب المحاماة ، وحسب الرجال أن الفتيات سيهرعن إلى هذا الثوب ، ولكن المهنة الشاقة ظلت وقفاً على الرجال ! — لو كنت صاحب سلطان لفتحت أبواب البرلمان ومنصات الوزارة للمرأة ، وأطلقت لها كل عمل تزاوله كما تشاء ، واثقاً أنها ستظل حتى وهي في أوج السلطان ، يسعدها أن تسمع من رجل كلمة إعجاب أضعاف ما يسعدها أن تبلغ كرسي الوزارة ! » .

هذا الذي يقوله الأستاذ زكي عبد القادر يقرر الواقع بلا جدال ... وكم أود — لضيق النطاق — أن أسأل الطالبين بحقوق المرأة سؤالاً واحداً لا أنتظر الجواب عنه : كم في مصر من المثقفات اللائي يستطعن النهوض بهذا العبء الخطير ويشاركن بثقافتهن الناضجة في ركب الحياة السياسية ؟

إنني أنظر فلا أرى منهن من تمنيها ثقافتها على تحمل المسئولية الضخمة غير عدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومع ذلك فقد بحت الأصوات من المطالبة بحقوق المرأة في مصر ... بالله خلصونا من هذه الغلواء ، وإذا قال واحد منكم بأن الجامعة يمكن أن تخرج لنا جيلا ناهضاً من الفتيات المثقفات فقد كذب على الواقع الذي لمسته يوم أن كنت في الجامعة ؛ إن الفتاة المصرية لا تذهب إلى الجامعة طلباً للعلم ... ولكنها تذهب إليها طلباً للزوج !

أنور المعداوي

يدرس ، وحتى الثقافة العربية أكثر منها بما درسه وحققه المستشرقون ، ولا قيمة لما عدا ذلك !! وأنا لا أرى أن هناك إنسان متقدم وإنسان متأخر ، وإني أراكم تلوكون كلمة العروبة فمن هم العرب ؟!

ارتفعت درجة الحرارة في المجلس ، وتدفقت الردود تقول :

— أتسأل من العرب ؟ نحن العرب ... نحن العرب بوراثاتنا التاريخية وما كسبناه ومزجناه بها من الثقافات المصرية ، نحن العرب الذين نتحد في قيمنا الروحية واتجاهاتنا الفكرية والاجتماعية ، ونختلف في كل ذلك عن الغرب . وها نحن أولاء في مجلسنا هذا نمثل ثلاثاً من الدول العربية ، يطبعنا طابع واحد في التفكير والمشاعر ، ونتشابه حتى في الشكل والسحنة ، لا يختلف مصري عن عراقي أو لبناني إلا كما يختلف أبناء الأمة الواحدة من حيث الفروق الفردية ، ولو أننا انتقلنا بكامل هيئتنا إلى مجتمع أفرنجي لأحسسنا أننا غرباء عنه ولتزايل الدم من الدم ...

وليس معنى أن نأخذ العلوم والمخترعات الحديثة عن الغرب أن نفقد شخصيتنا ونفنى فيه . وإذا كنا الآن نأخذ من الغرب علومه فقد أخذ كثيراً من حضارتنا وعلومنا واستعان بها في نهضته الحديثة ، وفي مكتبات أوربا نحو خمسمائة مجلد في الإشادة بالحضارة العربية وما أسدت إلى العالم الغربي .

إننا لا نغلق الباب الغربي بل نحن دائبون على الاتصال بالغرب والاقتباس منه والانتفاع بحضارته ، فلم تقول أنت بغلق الباب الشرقي وقطع الصلة بماضينا وثقافتنا العربية بما فيها من آداب وعلوم وفنون ؟ ولا شك أننا استطعنا في نهضتنا أن نكون ثقافة عربية حديثة مبنية على تراثنا الثقافي وعلى ما اقتبسناه من الثقافة الغربية ، ومجيب أن ندعو إلى ما درسه المستشرقون من الثقافة العربية وفي نفس الوقت ندعونا إلى هجر هذه الثقافة فأنت تحرم علينا ثقافتنا وتبيحها للمستشرقين !

هل أن ثقافة الغرب إما علوم أو آداب وفنون ، فالعلوم نتلقاها منه باعتبارها أدوات لتنظيم الحياة وتيسير وسائلها ، أما الآداب والفنون ، وهي أصق بالأرواح والمشاعر ، فنقتبس منها ما يلائمنا لنضيفه إلى آدابنا وفنوننا التي هي الأساس في ذلك لأنها نتاج بيئتنا وصورة حياتنا ومرآة نفوسنا .

وهنا قال الدكتور :

— ما هي فنوننا ؟ هل عندنا موسيقى كالموسيقى العالمية ؟

— فنوننا هي التي نتذوقها ، وإن كان فيها نقص فإننا في سبيل استكماله . ونحن نتذوق موسيقانا ونطرب للجيد منها ولا يضيرنا أن غيرنا لا يستسيغها ، وماذا يهمنا من كلمة عالمية ، ما دام الوصف بها لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة لأذواقنا ؟

— إن الطفل يضرب (الصفيحة) بالعصا ويسر لما يحدثه ذلك من صوت ، فهل معنى ذلك أنه موسيقى راقية ؟

— إن هذا التشبيه يمكن أن ينطبق على الموسيقى الغربية بالنسبة للشرق الذي لا يرى فيها إلا تصديعاً للرءوس .

نحن نسمع مثلا موسيقى عبد الوهاب وغناء أم كلثوم ، وغير عبد الوهاب وأم كلثوم من فناننا المجيدين ، فنتذوق فنهم ونسر به ، لأنه يعبر عن مشاعرنا ويخاطب قلوبنا ، فهو منا وإلينا ، ولذلك نشعر بقرب الموسيقى الأسبانية من نفوسنا أكثر من موسيقى البلاد الأوربية الأخرى ، لأن الأسبانية تنزع إلى أصل عربي كان في الأندلس . وليس مما يقع أن تحول مشيرة المذياع إلى محطة أجنبية ، وأم كلثوم تذيع إحدى حفلاتها الغنائية ، لتسمع بدلا منها غناء إحدى الفرنسيات أو الإنجليزيات .

قال الدكتور وهو يتهيأ للانصراف : إن تذوق الموسيقى الأوربية يحتاج إلى تربية وتثقيف .

فسأله أحد الجماعة : ممن أخذ الأوربيون موسيقى (الجاز) ؟

فسكت ، وناب عنه من أجاب : من موسيقى الزنوج ...

ثم انصرف قبل أن يبدي رأيه في تذوق موسيقى الزنوج وهل يحتاج إلى تربية وتثقيف ...

عباس خضر

الاستاذ محمود الخفيف
يقدم
أحمد عرابي
ثمنه ٥٠ قرش